مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد7 /العـدد: 4 (2019)، ص : 68- 81

صورة الإسلام في مرآة الغرب المسرح والتصوير أنموذجين

The image of Islam in the mirror of the West Theater and photography as models

د. عبد الرزاق تومياتت[1]

[1] جامعة الدكتور يحي فارس بالمدية، الجزائر

raziktoum@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2019/11/10 تاريخ القبول: 25 /2019/11 تاريخ النشر: 2019/12/01

ملخص:

يعتبر المسرح والتصوير لونان من الفنون الإنسانية المعروفة منذ القديم عند الإغريق والرومان، و تسللا إلى العديد من الأصقاع في عملية تأثير وتأثر عبر الحملات العسكرية و الرحلات و البعثات العلمية التي أرسلها الغرب واستهدفت بلدان الشرق الإسلامي، و كان هذان الفنان يتناولان في موضوعاتهما أخبار الماضين من الدول والأمم و غزواتهم و توسعاتهم وملاحمهم، فتمكنا من إيصال مزيج حضاري جدير بالاهتمام، استخلصنا منه العبر وتابعنا بواسطته مراحل تطور الفكر الإنساني عبر التاريخ في شكل تصاوير على القماش واللوحات الفنية و في الشعر الغنائي و في النثر الفني في الملهاة والمأساة.

الكلمات المفتاحية: الإسلام.، الغرب.، المسرح.، التصوير.، الإساءة.

Abstract:

Theatre and photography are two colors of human art known since ancient times to the Greeks and Romans. These two colors infiltrated many places in the process of influence and effect through military campaigns, trips and scientific missions sent by the West targeting Eastern Islamic countries . They deal with the history of countries and nations, their conquests, their expansions and their epics. We were able to deliver a worthwhile

cultural mixture from which we learned lessons and followed the stages of the development of human thought throughout history in the form of images on canvas and paintings, in lyrical poetry and in artistic prose in comedy and tragedy.
Keywords: Islam, The West, Theatre, Photography, intolerance

المؤلف المرسل: د. عبد الرزاق توميات،

1. مقدمة:

تعددت أشكال إساءة الغربيين للشرق على وجه العموم، فهو من وجهة نظرهم يرمز إلى التخلف والرجعية والجمود و الانحطاط الحضاري، و نظرتهم للإسلام خصوصا كانت و لا تزال أشد قتامة وسوداوية منذ ظهوره كخاتمة الديانات السماوية الداعية إلى التوحيد، و إن كانت الكتابات كثيرة بلغت الآلاف محفوظة في أعرق المكتبات الغربية في إكسفورد وباريس وليدن و أمستردام وتوسكانيا وفيينا وغيرها، و في أديرة وكنائس أفينيون وروما ، تولى تأليفها مستشرقون حاقدون وكهنة و قسيسين ورهبان وكتاب، هدفهم الحرص الشديد على تشويه صورة الإسلام ونبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم وحضارة المسلمين مشرقا ومغربا، وبحكم اتساع هذا الموضوع من وجهة النظر التاريخية فإننا اقتصرنا على مجال معين هو الأعمال المسرحية التي تناولت كل ما اتصل بالإسلام بالنقد والتجريح، ولم تراع فيها حرمة الأنبياء والديانات السماوية التي خرجت من مشكاة واحدة، و لم تسلم حتى الذات الإلهية من النقد الشديد في مظهر شوفيني عنيف بلغ حدا لا يطاق و ليس له ما يبرره من الناحية الأخلاقية.

أردنا التعرف على بعض المؤلفات التي أبدت وجهة نظرها تجاه بعض القضايا الفكرية والتاريخية في العالم الإسلامي، وعلى هذا الأساس يمكننا الانطلاق من الإشكاليات التالية: فيم تمثلت هذه الأعمال ؟ و ما مدى إساءتها للعالم الإسلامي ؟ و ما هي ردود أفعال المسلمين إزاء هذه الحملات العدائية ؟

اعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج التاريخي والوصفي لتتبع أهم المحطات الفكرية والتاريخية التي تناولت المسلمين من وجهة نظر مغايرة، اتسمت غالبيتها بالطابع النقدي، والجرأة والتطاول على المسلمين في تاريخهم وواقعهم وتجاربهم الحضارية.

2. أهمية الدراسة:

تكتسي هذه الدراسة أهمية من وجهة النظر التاريخية، ذلك أنها تطرقت إلى نظرة الغرب للإسلام في فترة العصور الحديثة التي مثلت عصر النهضة بالنسبة للأمم الغربية ذلك أنها تخلصت من الترسبات الدينية وسطوة طبقة الإكليروس على أوربا لقرون متواترة، لكنها احتفظت بنزعة عدوانية مفرطة تجاه الشعوب الشرقية ومقدساتها الدينية و خصوصيتها الحضارية.

3. أهداف الدراسة:

- إبراز صورة المسلمين في مرآة الغرب عبر بعض المحطات الفكرية والتاريخية.
- التعرف على أشكال الإساءة التي تعرض لها المسلمون عبر تاريخهم خاصة في العصور المتأخرة.
- توضيح ردود فعل المسلمين حيال ما يتعرضون له من إساءة لتاريخهم وحضارتهم.

4. مسرحيات لفولتير وموزارت ودي بورنيير:

شهدت أوربا منذ النصف الثاني من القرن 18م بروز العديد من الأعمال المسرحية التي تناولت الإسلام بالنقد و التجريح دون مراعاة أن حرية التعبير تتوقف عند احترام حدود معتقدات ومقدسات الغير، وظهرت أعمال كثيرة أيضا خلال القرنين 19 و 20م تحمل نفس التوجهات والدلالات ذات الطابع العنصري والفكر الاستعلائي.

لقد اطلعنا على ثلاث أعمال مسرحية تعود إلى الفترة الحديثة، في زمن كانت الأمم الغربية تحيك الدسائس وتتآمر على العالم الإسلامي الذي كانت تمثله آنذاك الخلافة الإسلامية العثمانية، وهي أعمال لشخصيات ذات وزن ثقافي ومعرفي في أوربا، ولها شهرة حتى لدى الأوساط الإسلامية، سنشير إليها في هذه الورقة بشيء من التفصيل.

1.4 مسرحية محمد لفولتير:

هو المفكر والفيلسوف والكاتب المسرحي الفرنسي فرانسوا ماري آروويه François-Marie Arouet الشهير بفولتير، ظهر العمل الذي نحن بصدد الإشارة إليه سنة 1741م بعنوانه الأصلي Le fanatisme, ou Mahomet le Prophète يتألف من خمسة فصول كتبها سنة 1736م، وعرضت لأول مرة في مدينة ليل الفرنسية في ربيع 1741م، ثم في باريس سنة 1742م (Voltaire, 1736)، هاجمت المسرحية الدين الإسلامي موجهة سهام النقد للنبي محمد (عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم) بتصويره سفاكا للدماء يحمل سيفا ويقتل معارضيه (Renan, 1858)، وتتكلم عن حصار محمد لمكة و صراعه مع الزبير! ، و يرسم صورة خاطئة تماما للنبي الذي استغل ضعف الإمبراطورية الرومانية وهزيمة الفرس للسيطرة والتوسع ونشر الدين الجديد و الإله الجديد الذي جاء به (!)، و القيام بالخداع و نشر التعصب، ويقول فولتير بأنه كتبها معارضا لمؤسس طائفة دينية كاذبة وبربرية (Milza, 2000) ، وأن الهدف من هذا العمل إبراز الأبعاد المقيتة للفاشية التي يمكن لمدّع أن يزرعها في العقول الضعيفة، لكن فولتير اضطر لسحب المسرحية بعد ثلاثة عروض، بسبب ضغط الكنيسة التي رأت في العمل إهانة للديانة المسيحية، و أنه ما كتب المسرحية إلا لانتقاد الكنيسة والإكليروس بشكل غير مباشر، و حوكم نتيجة تلك الخطوة الجريئة بتعبير ذلك الزمان (حسن، 2007)، ومما تجدر الإشارة إليه أن نابليون بونابرت ندّد وهو في

المنفى بجزيرة سانت هيلين Sainte-Hélène بهذا العمل المسرحي و انتقد فولتير نقدا حادا على مزاعمه تلك (cases, 1824) .

و الغريب في الأمر أن فولتير تراجع عن آرائه المتطرفة لاحقا و تغيرت نظرته للنبي محمد صلى الله عليه وسلم و للإسلام و القرآن بشكل جذري معترفا بأن هذا الكتاب إذا كان سيئا بالنسبة إلينا، فإنه لم يكن كذلك بالنسبة لهم، علينا واعترف بأن الرسول صلى الله عليه وسلم ألغى الوثنية من كل قارة آسيا تقريبا (Voltaire, 1738).

2.4 مسرحية إيدومينيو لموزارت:

هو الموسيقي الشهير فولفغانغ أماديوس موزارت Wolfgang Amadeus Mozart (1756-1791م) الذي اشتهر بالكثير من الأوبرات الخالدة، ومن بينها أوبرا غنائية باللغة الإيطالية ألفها وتم عرضها لأول مرة على مسرح مدينة ميونيخ سنة 1781م، وتم تقديم ثلاثة عروض خلال ثلاثة أيام، كما أعيد عرضها في العديد من الدول الأوربية في سنوات لاحقة، و القصة مقتبسة من رواية إغريقية بطلها إيدومينيوس Idomeneo ملك جزيرة كريت، و إيليا ابن بريام ملك طروادة و إدامانتي ابن إيدومينيوس و إليترا أميرة أرقوس و أرباص المقرب من إيدامانتي و تينور الكاهن الأكبر لنبتون و امرأتان من كريت هما سوبرانو وميزو سوبرانو و شخصيتين من طروادة، وفحوى هذه القصة أن ملك كريت عند عودته من حروب طروادة و غرق السفينة التي كانت تقله ونجاته من الموت أراد الانتقام من أول شخص يقابله على الجزيرة، فوجد ابنه عندها حاول قتله، لكن نبتون منعه من فعل ذلك وهدده بإرسال وحش لتدمير الجزيرة إن فعل ذلك، فاضطر للعدول عن موقفه ، عندها كسب رضا نبتون واحتفل الجميع و غنوا فرحا، و في تلك الأثناء يأتي إيدومنتي برمز جميع الأديان لينتقم منها، و قام بقطع رؤوس إله البحر و بوذا و يسوع و محمد (صلى الله عليه وسلم) و يضعها على كراس وهي تقطر

دما، ويعلن بعدها انتصاره على جميع الديانات وعلى الذات الإلهية إرضاء للآلهة! (المدني، 2016).

ورغم ما تحمله هذه المسرحية من ازدراء للأديان و إساءة واضحة و خطيرة، إلا أن بعض الدول أصرت على الاستمرار في عرضها بدعوى حرية التعبير، فتم عرضها في ألمانيا سنة 2003م و أثارت ردود أفعال قوية، و كان من المفترض أن تعرض من جديد على مسرح برلين، إلا أن العرض ألغي بسبب تحذيرات أمنية من مخاطر غير محسوبة على الأوبرا والعاملين بها، و عارضت المستشارة الألمانية قرار الإلغاء متحدية التخويف الذي يقف وراءه إسلاميون راديكاليون مستعدون لارتكاب أعمال عنف على حد زعمها (تشيمبرز، 2006)، وأعقب هذا الخطاب استنكار واسع من أجل استئناف العرض من أوساط سياسية ألمانية، وهكذا يتضح أن مسألة احترام الغير عند الغرب موجودة كفِكرة لكنها مطبقة بشكل جزئي عندما يتعلق الأمر بمصالحهم و توجهاتهم الصليبية.

3.4 مسرحية محمد لدي بورنيير:

هو هنري دي بورنيير Henri de Bornier (1825- 1901م) كاتب وناقد مسرحي فرنسي من بين مؤلفاته عمل مسرحي ظهر سنة 1889م عنوانه محمد Mahomet و اقنع المسرح الحكومي الفرنسي (Comédie Française) بتبنيه و الموافقة في عرضه على الخشبة، وتحتوي بعض مشاهد المسرحية على صور مستفزة لمشاعر المسلمين، بإساءتها للنبي عليه الصلاة والسلام، فكان أحد الممثلين على استعداد لتجسيد شخصية الرسول (صلى الله عليه وسلم).

وتحرك السلطان العثماني عبد الحميد الثاني (1876- 1909م) موجها إنذارا شديد اللهجة للحكومة الفرنسية واحتجاجا تسلمه السفير الفرنسي في الأستانة كونت مونتبلو Le Comte de Montebello ، كما وجه السلطان خطابا واضحا إلى الدوائر الفرنسية عبر السفير العثماني في باريس صالح منير باشا

أهم ما ورد فيه بأنه إذا عرضت المسرحية التي تقدح في رسول الله صلى الله عليه وسلم فسيستخدم السلطان صلاحيات الخليفة التي يتمتع بها، ويحرّض بلاد الهند و العرب وكل العالم الإسلامي ضد الفرنسيين (هوفمان، 2016).

ولكن مؤلف المسرحية سعى لعرضها في بريطانيا ظنًا منه أنه سوف يكون خارج نطاق تأثير السلطان عبد الحميد، وبعد قبول طلبه تقرر عرضها على خشبة مسرح الليسيوم The Lyceum Theater الذي تشرف عليه الحكومة الإنجليزية، لكن السلطان عبد الحميد استطاع بثقله السياسي إقناع اللورد سالزبوري Lord Salisbury وزير الخارجية الإنجليزي بمنع عرض هذه المسرحية في كافة أرجاء بريطانيا (هوفمان، 2016، صفحة 65).

و قد رافق هذا النجاح الذي قادته الدولة العثمانية بمنع عرض المسرحية في أوربا عاصفة من الاحتجاجات استمرت لسنوات في الصحافة الفرنسية، التي انتقدت السلطان عبد الحميد بشدة متهمة إياه بفرض رقابة على حرية التعبير في أوربا ! (Figaro, 1909) .

5. التصوير:

برز هذا اللون من الفنون بشكل واضح بعد الحملة الفرنسية على مصر العثمانية سنة 1798م فبدأت رحلات الرسامين والمصورين في العالم الإسلامي سعيا لإثراء وسائل التعبير من خلال الانطباعات الحِسّية والألوان وتوزيع الضوء والظِّلال، و توجَّه كبار الرسامين إلى مصر وبلاد الشام وإسطنبول مدفوعين إلى استِيحَاءِ موضوعات جديدة من البيئة الشرقية كالمدن والقلاع والمساجد والحمامات وقوافل الجمال والحريم.

ولنا أن نذكر بعض الأمثلة والنماذج لرسامين ومُصَوِّرين وضعوا بصماتهم في هذا الميدان، ولنبدأ بالرحالة والمصور الأسكتلندي ديفيد روبرتس D.

Roberts (1796- 1865م) الذي ترك العديد من اللوحات المائية مُرَكِّزا اهتمامه على العمارة في بيت المقدس وباب دمشق (باب العامود) (أفكار، 2018).

أما الدبلوماسي والفنان الفرنسي شوازل غوفيي Choiseul Gouffier (1752-1817م) فإضافة إلى منصبه كسفير لفرنسا لدى الأستانة، فقد ترك مجموعة كبيرة من التصاوير عن القلاع والقصور ومظاهر الحياة الاجتماعية في إسطنبول (Gouffier, 1842) ، يمكن بواسطتها تسجيل بعض الانطباعات، وهي في نظرنا تقرير صامت عن الحالة العامة للدولة العثمانية في تلك الفترة.

كما نشير إلى ما تركه المُصوِّر والمستشرق الألماني غوستاف بورنفيند Gustav Bauernfeind (1848-1904م) الذي ركّز اهتمامه في الرسم والتصوير على بلاد الشام وفلسطين، فبحكم ديانته اليهودية نراه يحنُّ إلى الأرض المقدّسة التي هي في نظر اليهود وطنهم الروحي، ويعتبر هذا المستشرق في حدّ ذاته مدرسة في فن التصوير الألماني (Thornton, 1994) .

لقد قدّمت لوحات ومصورات الغربيين صورة لعالم الشرق من وجهة نظر مختلفة، فهي انعكاس لذهنياتهم التي تبدو أحيانا بعيدة عن الواقع بتركيزهم على الحريم والحياة داخل قصور السلاطين والرقص ومظاهر العَرْبَدَة والمُجون والاحتفالات، إنّ ما جلب أنظار هؤلاء هو تلاقي أعمالهم مع المصالح الغربية التي تهدف إلى إظهار العالم الإسلامي بما يتنافى مع الواقع في كثير من الأحيان، وتجعل الشرق يبدو بمظهر البعيد عن الحضارة والأخلاق بخموله وكسله وميله إلى اللهو.

6. حلول وردود فعل ظرفية:

لقد أضرت هذه الأعمال التي تنظّر للعنف وتشحن المشاعر العدوانية للأمم الغربية للإضرار بالمسلمين خاصة بالنسبة للذين يعيشون في أوربا، فأصبحت أعين الغرب ترمقهم بمظهر الجمود والتخلف، واقترن الإسلام بالإرهاب والعدوانية ورفض الآخر، وهكذا فالصورة السوداوية التي رسمها الغرب عن

الإسلام لها خلفيات تاريخية اتسمت بطابع الاستمرارية، هدفها إذكاء نزعة العداء للمسلمين الذين يهددون باحتلال أوربا وطرد مواطنيها! و مما زاد في صلابة هذه الجبهة المعادية و تماسكها تطور وسائل الإعلام و الاتصال التي يسيطر عليها الغرب ويمولها اليهود بسطوتهم ونفوذهم.

لكن هل ردود فعل المسلمين التي شهدناها ونشهدها بين الحين والآخر حتى الآن كافية لكبح جماح هذا العدوان السافر؟ نعتقد في الوقت الراهن أنها إيجابية لكنها تبدو غير كافية مقارنة بحجم العدوان، ويمكننا حصر ردود فعل العالم الإسلامي خلال الفترة الحديثة و المعاصرة عموما في النقاط التالية:

- الضغوط الدبلوماسية من طرف الخلافة الإسلامية التي كانت ناجعة خلال القرنين 18و19م في التقليل من أشكال التعصب والإساءة الغربية للمسلمين.
- المناظرات بين علماء المسلمين والمفكرين الأوربيين
- مقاطعة البضائع الغربية
- رفع دعاوى قضائية لدى محاكم الدول الغربية
- عقد اجتماعات طارئة لمنظمة التعاون الإسلامي
- الاعتصامات والمظاهرات الحاشدة في العالم الإسلامي و بعض الدول الأوربية
- اقتحام سفارات الدول الغربية أو إغلاقها بشكل مؤقت
- تنظيم محاضرات و لقاءات للتعريف بالإسلام و الدعوة لحوار الأديان
- ردود فعل فردية للمطالبة بالقصاص أو تنفيذه بحق المسيئين للإسلام والمسلمين.

7. خاتمة:

إن الواقع الذي بلغه المسلمون يحتم عليهم تكثيف الجهود على الصعيدين الرسمي والشعبي من أجل نصرة الإسلام الذي لا تزال النزعة الشوفينية المقيتة للغرب تنوشه بأسلحتها وأقلامها أفرادا ودولا، لذا فمن الواجب الدفاع عن حياض الإسلام بما تمتلكه هذه الأمة من مقومات مادية ومعنوية، ولا يعجز هذه الأمة إحداث نهضة فكرية تحافظ على سيرورة الأمة في مضمار الحضارة، التي أبهرت منصفي الغرب من مفكرين ومستشرقين وساسة ومن عامة الناس، فجعلتهم يشيدون به في مؤلفاتهم وإنتاجهم الفكري من باب الاعتراف لذوي الفضل بفضلهم.

8. الملاحق:

ملحق رقم 01: سوق في حيفا (فلسطين) سنة 1877م للمصور غوستاف بورنفيند

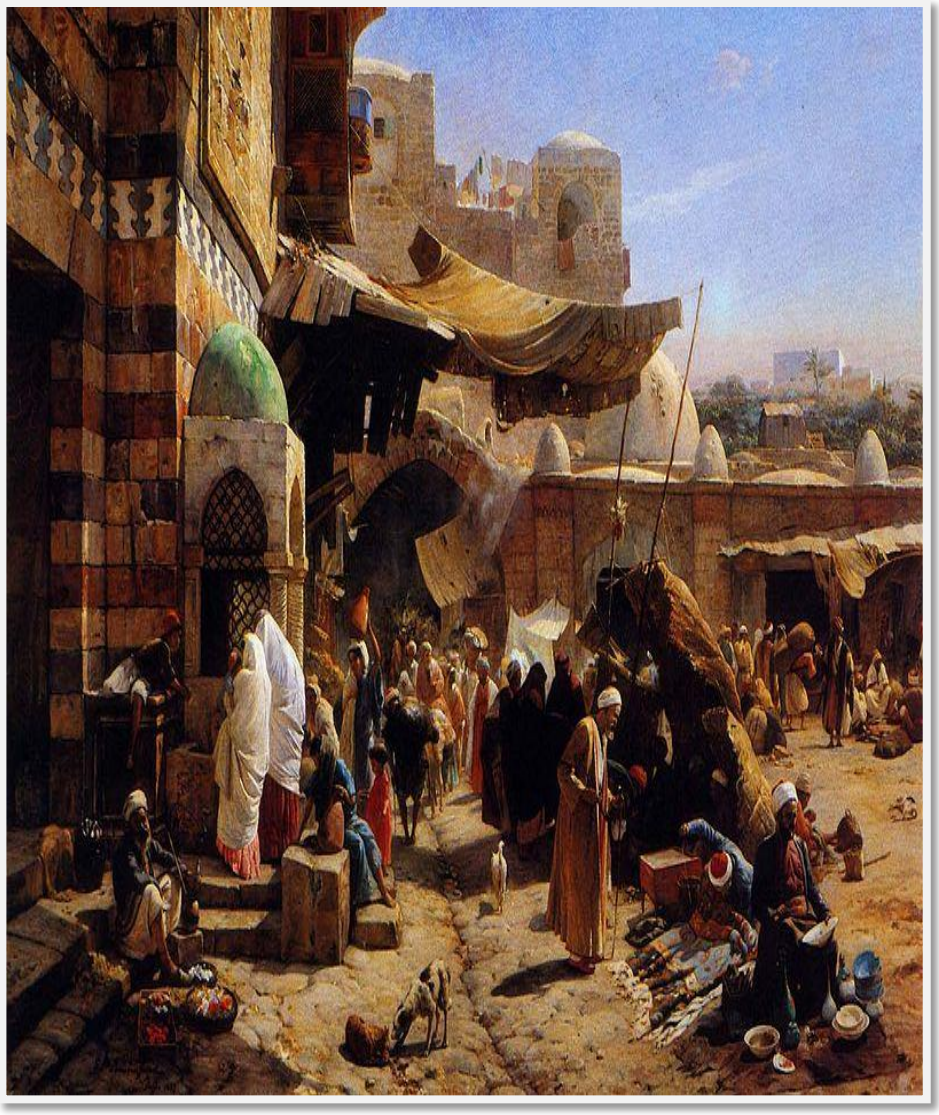

Source: Lynne Thornton, The Orientalists painter-travellers, ACR edition, Paris 1994, p.22.

ملحق رقم 02: غلاف مسرحية فولتير الساخرة

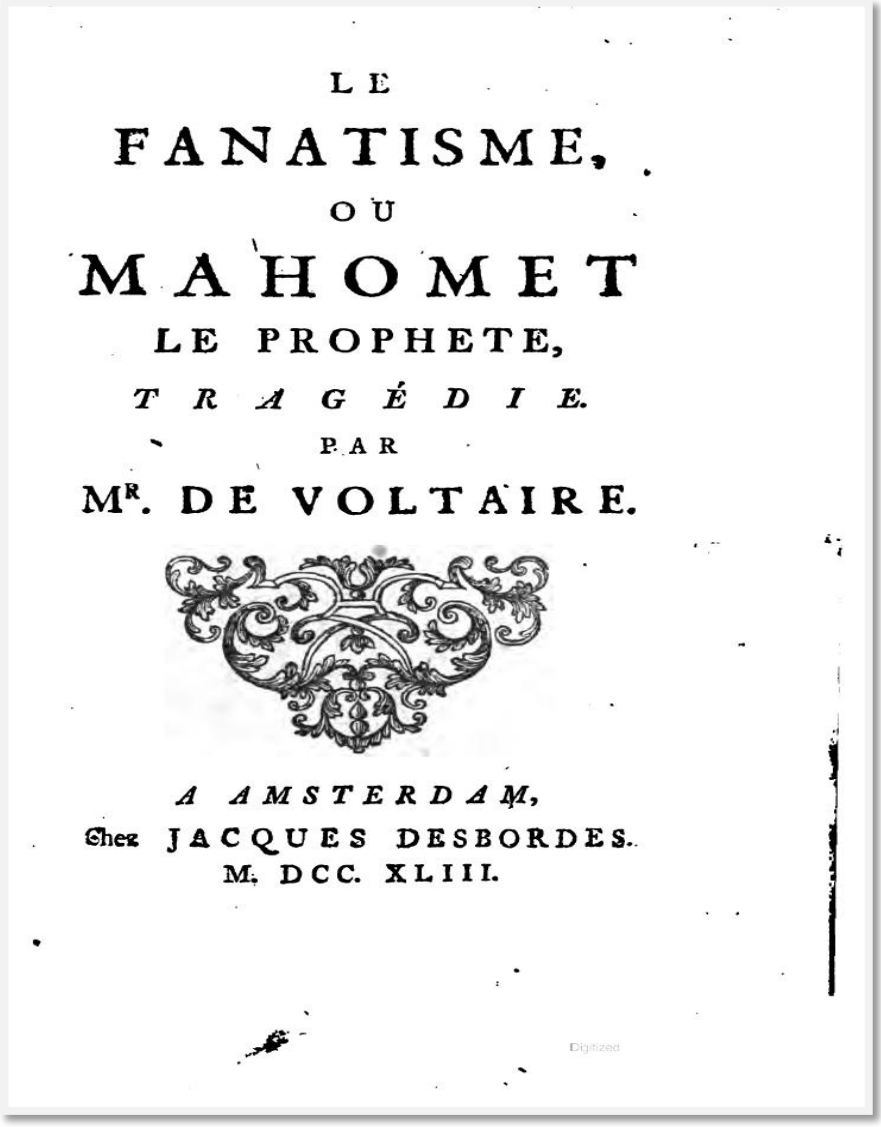

LE

FANATISME,

OU

MAHOMET

LE PROPHETE,

TRAGÉDIE.

PAR

M^R. DE VOLTAIRE.

A AMSTERDAM,

Chez JACQUES DESBORDES.

M. DCC. XLIII.

9. قائمة المصادر والمراجع:

-Cases, L. c. (1824). Le mémorial de Sainte-Hélène. Paris, France: Ernest Bourdin éditeur.

-Ernest Renan .(1858) .Études d histoire religieuse .Paris ، France: ed Michel Lévy frères.

-Figaro, L. (1909, 04 30).

-Gouffier, C. D. (1842). voyage pittoresque dans L'Empire ottomane. Paris, France: J. P Ailland.

-Lynne Thornton .(1994) .the Orintalistes panter-travellers . Paris ،France: ACR.

-Milza, P. (2000). Voltaire. Paris, France: Libraire Academique.

-Voltaire. (1738). Oeuvres de M. de Voltaire. Amesterdam: Pays-Bas.

-Voltaire, M. (1736). La fanatisme ou Mahomet le prophet. Amesterdam: Istienne Ledet et compagnie.

- عتريسي جعفر حسن. (2007). الحرب على الإسلام الخصومة التاريخية بين الشرق والغرب. بيروت، لبنان: مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع.

- مادلين تشيمبرز. (28 09، 2006). ميركل تنتقد عرض أوبرا لموتسارت. القدس العربي.

- مجلة أفكار. (كانون الأول، 2018).

- محمد نمر المدني. (2016). عقدة الأندلس وأسلمة أوربا إشكالية الإسلام في أوربا. دمشق، سوريا: مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع.

- مراد هوفمان. (2016). ذكريات السلطان عبد الحميد الثاني. (أحمد عمر أحمد، المترجمون) القاهرة، مصر: دار النيل.